تحوّلات الهامشيّ

قراءة في شعر ابن عمّار الأندلسيّ

د. فريال العليّ

مدخل

يعدّ "الهامش" من المصطلحات الفضفاضة في الاصطلاح النّقديّ، ولكنّه يكتسب ثنائيّة جدليّة واضحة نسبيًّا عند ربطه بمصطلح "المركز"؛ إذ يُدخلنا ربط المصطلحين معًا إلى عالم التّنازع والتّدافع والصّراع، إلاّ أنّ التّعاطي معهما يختلف باختلاف المنهج النّقديّ الّذي يخضع له النَّص الأدبيّ.[1]

وتمتلك كلمة الهامش في أصل اللغة معنى سلبيًّا؛ إذ تحيل إلى كلّ ما هو خارج المتن أو الأصل، وبذلك فهي تحدّد الموقع والدّور المنوط به، كما تحمل معنى الخلط في الكلام وكثرته بلا فائدة[2]؛ ممّا يجعل الكلمة في مرتبة دونيّة في دلالتها، ومن هذين المعنيين في أصل الاستخدام تشكّل معنى الهامش في الدّراسات الثّقافيّة والاجتماعيّة بصورة عامّة، وأصبح يمتلك دلالة مجازيّة تتحدّد ماهيّتها وفق مفهوم المركز، فإذا كان المركز هو السّلطة السّياسيّة فالهامشيّ كلّ ما هو بعيد عن عالم السّياسة، وإذا كان المركز يتمحور حول الثّروة الاقتصاديّة فالفقر هامش، وإذا كان السّيد مركزًا فالمولى والعبد هامشان، ومثله وضع الذّكورة في المركز سيجعل الأنوثة والطّفولة في موقع هامشيّ، والأدب الّذي يدور في فلك السّلطة مركزيّ، وكلّ ما عداه هامشيّ، وهو ما تسبّب بعدم امتلاك الهامش لدلالة اصطلاحيّة واضحة ومحدّدة يلتزم بها النّاقد عند النّظر في النّصّ الأدبيّ، وتحليل مواقعه المركزيّة وتشكّلاته الهامشيّة، إلاّ من خلال النّظر في الأنساق والسّياقات الثّقافيّة الّتي تحكم النّصّ الأدبيّ وتتحكّم فيه، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الأدب الهامشيّ[3] يختلف في مدلوله عن الأديب الهامشيّ وعلاقته بالمركز.

ولمّا كانت هذه الدّراسة النّقديّة تُعنى بشاعر أندلسيّ هو ابن عمّار، فإنّ مفهوميْ المركز والهامش يتحدّدان على ضوء تشكّلهما في الثّقافة الأندلسيّة الّتي كانت حاضنة للأدب الأندلسيّ، وهي ثقافة بُنيت مركزيّتها على ما بنيت عليه مركزيّة الثّقافة العربيّة في المشرق، فالسّلطة السّياسيّة هي أصل المركز ، وهي الّتي تحدّد ما هو مركزيّ أو هامشيّ، فالإسلام الّذي دان به كلّ حكّام الأندلس- من الفتح إلى السّقوط- مركز،

واللغة العربيّة الّتي تبنّتها السّلطة السّياسيّة في إدارة شؤون الدّولة مركز، والثّروة الاقتصاديّة الّتي تبني الدّولة مركز، والجيش الّذي يحميها مركز، والعصبيّات القبليّة من مراكز القوى الاجتماعيّة كذلك، ومنها تشكّلت الطّبقات الاجتماعيّة، وإن تدافعت عصبة الموالي مع عصب العرب قرونًا طويلة بسبب اتّكاء بناء دولة بني أميّة على عصبة الموالي؛ ممّا أهلهم للوصول إلى الحكم بعد سقوط الخلافة الأمويّة (422هـ/1031م)، لكنّ عصب العرب لم تنتهِ أو تَضعف كما يُظنّ، إنّما مرّت بمراحل كُمون حافظت خلالها على كلّ خصائصها، وكلّما أتيحت لها الفرصة استعادت حضورها القويّ كما كانت عليه الحال أوّل أمرها، وكلّ من هو خارج هذه الدّوائر المركزيّة إمّا أن يسعى إلى الانتماء إليها، أو يمتلك من الإمكانات ما تؤهّله لخلق مركزيّة جديدة، أو يكتفي بالتموضع في الهامش الّذي حدّدته له المؤسّسات السّلطويّة المختلفة.

إنّ هذه (الثيمات) المركزيّة في الأندلس هي الّتي حدّدت أنّ ابن عمّار ينتمي إلى الهامش، فهو فقير معدم، وليس له نسب رفيع يتباهى به، ولم يكن في عائلته من يشار إليه بالبنان في شؤون العلم أو السّياسة أو الجند يمهّد له الطّريق. لم يكن معه سوى حلمه وطموحه وشعره لاقتحام المركز، لكنّه مرّ بتحوّلات كثيرة تسعى هذه الدّراسة إلى رصد آثارها في شعره من خلال منهج النّقد الثّقافيّ.

الهامش: المبتدى

في قرية شَنَّبوس في شِلْب[4]؛ تلك القرية الخاملة كما يصفها ابن سعيد في كتابه "المغرب"[5]، ولد الشّاعر ابن عمّار (422هـ/ 1031م)، وهو ينحدر من عائلة خاملة البيت؛ إذ "ليس له ولا لأسلافه في الرّياسة في قديم الدّهر ولا حديثه حظّ، ولا ذُكر منهم بها أحد"[6]، ولا تكاد المصادر -الّتي ترجمت له- تذكر شيئًا عن نشأته وطفولته سوى ما ذكره عبد الواحد المراكشيّ في المعجب[7] من أنّه انتقل من شَنَّبوس إلى شِلْب وهو طفل، ونشأ بها، وتعلّم علم الأدب على جماعة؛ ذكر منهم الأعلم الشّنتمريّ[8]، أمّا عائلته فلا تكاد المصادر تذكر عنها شيئًا، لكن وردت إشارة – في معرض التّهاجي بينه وبين ابن اللبّانة بعد استقراره في بلاط بني عبّاد بإشبيليّة - إلى أنّ والده أو جدّه كان يعمل خنّاقًا؛ إذ قال ابن اللبّانة فيه[9]:

وَضِدّانِ نَحْـــــنُ فَلا شَيْءٌ يُؤَلِّفُنا أنا ابنُ اللبّانةِ وهْوَ ابْنُ خَنَّاقِ

وقد انفرد المقّريّ في "نفح الطّيب" بالإشارة إلى أنّ نسب ابن عمّار ينتهي إلى قبيلة مَهْرَة القضاعيّة[10]، وهو أمر مستبعد؛ إذ لم تشر أيّ من المصادر المتقدّمة إلى ذلك، ولو كان ذلك صحيحًا لما توانى ابن عمّار

لحظة واحدة عن التّباهي بهذا الأصل، وما من إشارة في شعره إلى نسب عربيّ يعتزّ به سوى بيت واحد في قصيدته الّتي كتبها في سرقسطة، وأرسلها إلى المعتمد، وفيها يقول[11]:

وما حالُ منْ ربّتْهُ أرضُ أعاربٍ وألقتْ به الأقدارُ بين أعاجمِ

إلاّ أنّ هذا البيت حمّال أوجه في التّفسير، والرّاجح أنّه يقصد بأرض الأعارب الأندلس العربيّة اللسان والثّقافة لا الأرض العربيّة المشرقيّة، وما كان لشاعر يتوق للانعتاق من حياة الهامش ألاّ يعزف على هذا الوتر المركزيّ -في تكوين المجتمع الأندلسيّ- في شعره.

وعلى غير عادة شعراء عصره لم تشر المصادر أنّ لابن عمّار حظًّا من علوم أخرى سوى الشّعر، مع أنّ الفرصة كانت متاحة أمام أبناء الفقراء لتلقّي كلّ أصناف العلوم مجّانًا، كما أنّه رحل إلى قرطبة؛ مركز العلوم في الأندلس وتأدّب بها، وما كان له لو كان طالبًا للعلم أن يفوّت على نفسه هذه الفرصة الثّمينة، فالعلم – آنذاك- كان نسب من لا نسب له، إلاّ أنّه آثر أن يتعلّم ما يعجّل بتغيير أحواله وانتشاله من هامش الحياة على ما يبدو، فمهر في صناعة الشّعر وحسب، ولم تكن له به من غاية –من وجهة نظر المرّاكشيّ- سوى التّكسّب[12]، وأحسب أنّه أصاب في رأيه هذا.

من هذا العالم الهامشيّ-بكلّ تفاصيله- بدأ ابن عمّار رحلته ولا زاد له في الحياة سوى شعره متكسّبًا به يهبه لكلّ من يلقاه ويأمل عنده بأعطية؛ أميرًا كان أو فقيرًا، فقد عانى في طفولته ومقتبل شبابه صنوف البؤس والحرمان وشظف العيش، وكان لهذه الحياة القاسية أثرها في إقباله بشعره على من يقدّره ولا يقدّره، وتقلّب في بلاد الأندلس مستجديًا مستعطفًا بهيئة رثّه تشي بأصل نشأته ومنبته، ولعلّ هذا ممّا أثّر سلبًا على تقبّل بعض أمراء الطّوائف له، وممّا يروى في هذا السّياق أنّه قَدِم على ابن العزيز أيّام رياسته ببلنسية مكتسيًا فروة طويلة وغفارة ضئيلة، فلمّا دار الزّمان بالرّجلين وخَلَعه ابنُ عمّار عن بلنسية، أرسل إليه يخيّره في خلعة يلبسها، فاختار عبد العزيز الفروة والغفارة، وعلم ابن عمّار أنّه يعرّض به وبزيّه يوم قصده وأنشده.[13]

ومع أنّ المصادر ذكرت أنّ الشّاعر قد قضى شطرًا من شبابه متجوّلًا بين مدن الأندلس، إلاّ أنّه لم يصل إلينا شيء من شعره في تلك المرحلة من حياته[14]، وكلّ ما نجده في المصادر الّتي ترجمت له عدا قدومه على صاحب بلنسية، قصّة أخرى ذكرها ابن بسّام في "الذّخيرة"[15] والمرّاكشيّ في "المعجب"[16] مفادها أنّه قدم في إحدى سفراته على شِلْب، ولا يملك إلاّ دابّة جائعة وشعره، فما كان منه إلاّ أن قصد رجلًا من وجوه السّوق مادحًا إيّاه، فقيّم ذاك الرّجل شعره بمخلاة شعير أخذها ابن عمّار وانصرف مضمرًا في صدره حقدًا

دفينًا سيُظهره لاحقًا، ولولا أنّ القصّتين ذُكرتا استرجاعًا في زمن دالَ لابن عمّار ربّما ما كنّا لنجد لهما أثرًا في أيّ مصدر، فأين ذهب ذلك الشّعر، وقد أشارت بعض المصادر إلى وجود ديوان شعر له يدور بين أهل الأندلس؟

ذكر ابن الأبّار في "الحلّة السّيراء" أنّ ابن عمّار أتلف أشعاره الّتي قالها قبل اتّصاله ببني عبّاد في إشبيلية ومحا آثارها، وأنّ ديوانه الّذي ألّفه أبو الطّاهر السّرقسطيّ[17]، واستفرغ جهده لجمعه وترتيبه على حروف المعجم لا يحتوي سوى على أمداحه في المعتضد، وما لا اعتبار له لنزوره[18]، فلماذا أقدم ابن عمّار على ذلك؟

ثمّة تفسيران لإقدامه على إتلاف شعره؛ أوّلهما أنّه ربّما وجد أنّ شعره قبل وصوله إلى بلاط المعتضد أقلّ جودة، فرغب في أن تحفظ ذاكرة التّاريخ أفضل ما جادت به قريحته. وثانيهما- وهو الأرجح- أنّه أراد إلغاء ماضيه بكلّ ما حملته سيرته من بؤس وفقر وحرمان وذلّ ومهانة على هامش حياة لم يخترها، إنّما كانت قدره المرير الّذي رغب في نسيانه، ولا سيّما إذا علمنا أنّ مدائحه في المعتضد نالت إعجاب معاصريه ولاحقيه، ولا يعقل أن يصبح شاعرًا بارعًا فجأة، ولعلّة ظنّ أنّ الحياة قد ابتسمت له أخيرًا، وأنّه قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أحلامه وطموحاته، فعمد إلى التّفلّت من ماضيه بمحو شعر لو بقي لسار في الرّكبان، وكشف كلّ ما أراد قتله في ذلك الإنسان الّذي كانه، وما درى أنّ المعتضد- وهو صاحب فراسة لا تُبارى في الرّجال- لن يجعله ينعم بحلمه هذا طويلًا، وأنّ نهايته على يد المعتمد لن تكون أهون عليه ممّا لاقى في الماضي.

المركز: المسعى

شكّل التحاق ابن عمّار ببلاط المعتضد في إشبيلية علامة فارقة في حياته؛ إذ وجد في المعتضد الحاكمِ والشّاعرِ مبتغاه، وعلم بذكائه المشهود له أنّه سيجد عنده الفرصة للاقتراب من المركز، وتحقيق آماله وطموحاته.

وثمّة روايتان لكيفيّة التحاق ابن عمّار ببلاط المعتضد؛ إذ يروي ابن بسّام أنّه التقى المعتمد في شِلْب حين وجّهه أبوه لفتحها عام 455هـ، وبلغ من المنزلة منه أن حمله المعتمد معه إلى إشبيلية[19]، ووافقه ابن الأبّار في هذه الرّواية[20]، أمّا المراكشيّ فيذكر أنّ ابن عمّار ورد على المعتضد عندما كان يطوف ببلاد الأندلس مستجديًا مستعطفًا، ثمّ تعلّق بالمعتمد بعد ذلك [21]، وقد اتّفقت المصادر الّتي أشارت إلى التحاقه

بالمعتضد– بصرف النّظر عن كيفيّة وصوله إلى بلاط إشبيلية- على أنّ أوّل شعره في المعتضد قصيدته الّتي مطلعها[22]:

أدرِ الزّجاجةَ فالنّسيمُ قدِ انْبَرى   والنّجمُ قدْ صَرَفَ العِنانَ عنِ السُّرى

ومنها في مدح المعتضد[23]:

عَبّاد المْخْـضَرُّ نائـِلُ كَــفِّهِ   وَالجَوُّ قــدْ لَبِــسَ الرِّداءَ الأَغْــبَرا

قَدّاحُ زَنْدِ المَجْدِ لا يَنْفَكُّ مِنْ   نــارِ الوَغَـى إلاّ إلى نــارِ القِــــرى

وبلغت القصيدة من نفس المعتضد أن أجزل له العطاء من مال وثياب ومركب، كما أمر أن يُكتب في ديوان الشّعراء.[24]

وقد لاقت هذه القصيدة استحسان النّقّاد، وأشادوا بها، وعدّوها أفضل قصائده، بل إنّ ابن سعيد الأندلسيّ ذكر أنّه لم يجد "لأحد من شعراء الأندلس قصيدة أتت فرائدها نسقًا لا يكاد ينبو عن بيت منها" سوى قصيدته هذه، ثمّ أورد بعض أبياتها[25]، أمّا ابن دحية فقد روى القصيدة كاملة، ثمّ علّق عليها قائلًا: "وهذه القصيدة من غُرر القصائد، ودُرر القلائد، وكلّ بيت منها بيت قصيد، وواسطة سلك فريد".[26]

ومن الواضح أنّ ابن عمّار وضع أقصى طاقاته وإمكاناته الشّعريّة في هذه القصيدة؛ إذ جاء الأنموذج النّسقيّ للقصائد المدحيّة عامّة والإنشاديّة خاصّة-كما أقرّته المؤسّسة النّقديّة- [27] في أعلى تجلّياته فيها، وكانت اللغة طوع يديه يشكّلها كيف يشاء للإشادة ببطولة ممدوحه وكرمه وعراقة نسبه، وتفنّن في تشكيل المعاني والصّور، ومن الصّور المبتكرة الّتي جاء بها قوله[28]:

السّيفُ أَفصحُ من زيادٍ خطبةً   في الحربِ إنْ كانتْ يَمينُكَ مِنْبَرا

وقد أدرك ابن عمّار أنّه بقصيدته هذه أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمه وغايته البعيدة بأن يكون في مركز الحياة لا على هامشها، ورِضَى المعتضد بابه إلى هذه الحياة الجديدة، والشّعر المنمّق وسيلته لتحقيق مسعاه، فجادت قريحته بالمزيد متحدّيًا مختالًا أن يأتي شاعر بما جاء به من نسيم الحمد والثّناء على مليكه، وطامحًا طامعًا في الوقت نفسه أن يلقى عند المعتضد ما يصبو إليه[29]:

وإليـكَها كـــــالرّوضِ زارَتْه الصَّبا   وحَنَى عَلــيهِ الطَّــــــلُّ حتّى نَوَّرا

نَمَّـقْتُها وَشْـــيًا بِذِكْـرِكَ مُـذْهَبا وَفَتَـقْتُها مِسْـكًا بِحَمْــدِكَ أَذْفَرا

مَنْ ذا يُنافِــحُني وذِكْــرُكَ مَـنْدَلٌ أَوْرَدْتُهُ مِنْ نارِ فِكْــريَ مَجْــمَرا

فَلَئِنْ وَجَدْتَ نَسيمَ حَمْديَ عاطِرا فَلَقَدْ وَجَدْتُ نَسيمَ بِرِّكَ أَعْــطَرا

وقد كانت هذه القصيدة أوّل الغيث بعد أن منحه المعتضد تأشيرة المرور إلى عالم الصّفوة، والاقتراب من المركز في إشبيليّة؛ حاضرة الأندلس الأهمّ في القرن الخامس الهجريّ، فبدأ يعدّ العدّة لترسيخ قدميه بإنشاد المزيد من المدائح في المعتضد من ناحية، والتّغلغل إلى نفس المعتمد بكلّ ما أوتي من مكر وسعة حيلة من ناحية أخرى.

ومن المرجّح أنّ رائيّة ابن عمّار هذه لم تكن ممّا يأتي عفو الخاطر والارتجال، ففيها أثر من إعمال الفكر والتّروي والتّصنيع حتّى تكتمل شعريتها مبنى ومعــنى، ويؤيد ذلك ما رواه ابن دحـية من أنّ عبـد المـلك بن رَزين خاطب ابن عمّار- وكان ضيفًا عنده- بشعر قال فيه:

ضَمانٌ على الأيّامِ أنْ أبْلُغَ المُنى إذا كنتُ في وُدِّي مُسِرًّا مُعْلِنا

وذكر ابن دحية أنّ ابن عمار لم يجبه في يومه، "لأنّه كان يُعاني قوله ويُعلّله، ويُروّيه ولا يرتجله"، ثمّ أتاه في اليوم الثّاني بقصيدة مطلعها:

هَصَرْتَ ليَ الآمالَ طَيِّبَة الجَنى وَسَوَّغْتَ ليَ الأحوالَ مُقْبِلَةَ الدُّنا [30]

وهذا ليس بمستغرب من رجل آتاه الله موهبة الشّعر، فجعلها مطيّة توصله إلى مراميه البعيدة في زمن كان الشّعر فيه عمودًا من أعمدة الثّقافة الأندلسيّة، وبوّابة عبور إلى بلاط السّلطان، فأحسن رعايتها، وعبر بها إلى مبتغاه، ولو إلى حين.

التّحوّل الأصغر: شعاع الدّائرة

بعد أن نجح ابن عمّار في نيل رضى المعتضد بشعره، وطّن نفسه على اقتناص الفرصة بأيّ ثمن، فلازم المعتمد ملازمة الظّلّ لصاحبه، وعاش بصحبته عيشة هانئة ناعمة ليّنة تليق بأبناء الملوك وصحبهم، وبدأ يخالط علية القوم من الوزراء والكتّاب والأثرياء، ويتقمّص شخصيّة التّرف النّاعم، وأصبحت علاقته

بالسّلطة كعلاقة الشّعاع بمركز الدّائرة؛ يلتقي بالمركز لكنّه ليس سوى قطعة فحسب جاءت من أحد أطراف الدّائرة، لكنّها موصولة بالمركز على أيّ حال.

لقد كانت العلاقة الوطيدة بين ابن عمّار والمعتمد هي السّبب المباشر لاقتحام الشّاعر هذا العالم الجديد بكلّ قوّة وثقة، وقد حفظت المصادر بعض المساجلات الشّعريّة بينهما[31]، ومن أشهرها -في قابل العهد بينهما- ما جاء في سياق خبر مفاده أنّ أحد فتيان المعتمد أدخل عليه باكورة نرجس، فكتب إلى ابن عمّار يستدعيه[32]:

قدْ زارَنا النّرْجِسُ الذَّكِيُّ وآنَ مِنْ يَوْمِـــنا العَشِيُّ

ونَحْنُ في مَجْلِسٍ أنيـقٍ وقَدْ ظَمِـــئْنا، وثَـمَّ رِيُّ

وَلي نَديمٌ غَـــدا سَمِيِّي يـا لَيْتَه ساعَـــدَ السَّمِيُّ

فأجابه ابن عمّار:

لبَّيْكَ لَبَّيْكَ مِنْ مُـــنادٍ لَهُ النَّدى الرَّحْبُ والنَّدِيُّ

ها أَنا في البابِ عَبْدُ قِنٍّ قِبْلَتُهُ وَجْـهُكَ السَّـــنِيُّ

شَرَّفَـــه والِداهُ بِاسْمٍ شَرَّفْتَـــهُ أَنْـتَ والنَّبِيُّ

ومع ما في ردّ ابن عمّار من خضوع ظاهريّ؛ إذ إنّه ليس أكثر من "عبد قِنٍّ" لأميره، إلاّ أنّ البيت الثّالث يحمل دلالات تشي بما يخفيه الشّاعر من نظرته لنفسه في كونه ندًّا للمعتمد، ولو بالاسم، ولعلّه يمنّي نفسه أن ينال بعض حظّه، لكنّه بالغ حين جمع اسميهما مع اسم النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، وهذه ليست واحدة شعره؛ إذ قال فيه -بعد فراره إلى سرقسطة- متجاوزًا حدّ النّفاق إلى الغلوّ[33]:

تَبَوَّأَ مِنْ لَخْمٍ وناهيكَ مَقْعَدا مكانَ رسولِ اللهِ مِنْ آلِ هاشِمِ

كما سبق لهذا المعنى عندما مدح المعتضد[34] بعد عودته منتصرًا من إحدى غزواته[35]:

إنْ كُنْتَ مِنْ لَخْمٍ وَسُدْتَهُمْ فَقَدْ ســادَ النّبيُّ محمّـــدٌ عَـدْنانا

ولمّا ضمن ابن عمّار تمكّنه من نفس المعتمد، أخذ يوجّه شعره إلى أكابر رجال الدّولة والوزراء، ولا سيّما ابن زيدون الّذي طبّقت شهرته آفاق الأندلس قاطبة، فوضع شعره في خدمة هدفه علّه يصيب بعض حظوظهم، وعلى ندرة ما وُجد في المصادر من شعر ابن عمّار في ابن زيدون على تطاول عهدهما في بلاط المعتمد، مع سابق عهد قصير بينهما في بلاط المعتضد، إلاّ أنّ ابن الأبّار أورد له قصيدة يُفهم من سياقها أنّه مدح ابن زيدون غير مرّة؛ إذ يقول[36]:

أَحينَ سَقى صوبُ اعتنائِكَ ساحتي فَنَعَّمَها واهْـــــتزَّ رَوْضِي في تُرْبِي

ثَنَيْتَ لِعَطْفٍ قدْ ثَنَيْتُ مَـدائحي عليه، وسِرْبٍ قدْ بدَّلْتَ بهِ سِرْبِي

ومع إدراك ابن عمّار أنّ مدائحه لم تقع في نفس ابن زيدون كما كان يأمل، إلاّ أنّه –على ما يبدو- استمرأ التّودّد له ومعاتبته عتابًا يفارق ما بين الإخوان والأنداد إلى ما يشبه التّذلّل الممجوج الّذي تأنفه النّفس الأبية، ومن ذلك قوله:

أَمـــا إنّه لـــولا عَـــــوارفُكَ الّتي جَرَتْ فِيَّ جَرْيَ الماءِ في الغُصُنِ الرّطـبِ

لَما ذُدْتُ طَيْرَ الوُدِّ عَنْ شَجَرِ القِلى ولا صُنْتُ وَجْهَ الحَمْدِ عَنْ كَلَفِ العَتْبِ

ولكنْ سَأَكْني بالوفـــاءِ عنِ الجَفا وأرضى بِبُعْدٍ بَعْـدَ ما كـــان مِنْ قُرْبِ

وإنْ لَفَحَتْني مِنْ سَمائِكَ حَرْجَفٌ[37] سَأَهْتِفُ: يا بَرْدَ النّسـيم عـــلى قَـلْبي

أمّا ديوان ابن زيدون فلم يذكر فيه ابن عمّار إلاّ مرة واحدة، ولم يدوّن له سوى بيت واحد في سياق مطارحة بينهما ومعهما الشّاعر ابن وهبون[38]، ولو كان بينهما ما يحاول ابن عمّار الإيحاء به في الأبيات السّابقة، لظهر أثره في شعر ابن زيدون، ولا سيّما أنّ باب الإخوانيّات في ديوانه زاد على خمسين صفحة.

ولعلّ ابن زيدون –وقد عركته التّجارب- رأى في ابن عمّار رجلًا أفّاقًا انتهازيًا وضيع المنبت خامل الذّكر فصدّه وأهمله، ولا سيّما مع ما عُرف عن ابن زيدون من اعتداده بنسبه العربيّ المخزوميّ في قريش، فضلًا عن كونه أشهر أدباء عصره وأعلاهم شاعريّة بشهادة معاصريه ولاحقيه، ولم يضع أيّ ممّن ترجم لابن عمّار الشّاعرين في منزلة واحدة أو متقاربة سوى العماد الأصفهانيّ وابن دحية؛ إذ افتتح العماد ترجمة ابن عمّار بالقول: "هو وأبو الوليد بن زيدون في حسن الشّعر فرسا رهان، ورضيعا لبان، وقد ذكر أكثر الأدباء بالأندلس أنّهما أشعر

أهل عصرهما"[39]، وقريب منه ما ذكره ابن دحية: "هو وابن زيدون فرسا رهان، ورضيعا لبان، في التّصرّف في فنون البيان، وهما كانا شاعري ذلك الزّمان"[40]، لكنّ ما وصل إلينا من شعر ابن زيدون يتفوّق مبنى ومعنى على ما تبقّى من شعر ابن عمّار.

ومع انغماس ابن عمّار في ملذّات هذه الحياة الجديدة، إلاّ أنّها لم تشغله عن مدح المعتضد -في السّلم والحرب- بقصائد "**مطرّزة العطفين بالشّكر والحمد**"، و"**أَلَذُّ منَ العذْبِ القَرَاحِ على الصّدى**"، بل إنّها "**أطيبُ منْ وَصْلِ الهَوى عَقِبَ الصَّدِّ**".[41]

وأسوة بغيره من الشّعراء، كان الطّمع في عطاء المعتضد هو المحرّك الحقيقيّ للإفاضة في مدحه، وقد صرّح بذلك ولم يوارِ، كاشفًا عن نفس جشعة لا يملأ عيناها سوى التّراب، ومنبئًا عن أصل منبت وضيع بائس، وحظّ من الحياة يابس، ومن ذلك قوله[42]:

وما هذه الأشـــــعارُ إلاّ مَجامِرٌ تَضَوّعَ فيها للنَّـــدى قِطَـــعُ النَّدِّ

وكُنْتَ نَثَرْتَ الفَضْـــلَ فِيَّ وإنَّما نَثَرْتَ سَقيطَ الطَّـلِّ في وَرَقِ الوَرْدِ

فَأُقْسِمُ لَوْ قَسَّمْتَ جودَكَ بَيْنَنا على قَدْرِ التّأميلِ فُزْتُ به وَحْدي

ولا يخفى على قارئ هذ الأبيات شدّة اعتداد ابن عمّار بشعره وتقديره لموهبته، مفارقًا الغرور إلى نزعة نرجسيّة واضحة؛ ينتزع من خلالها شرعيّة الاعتراف به وإن جاء من أقصى أطراف الهامش، ما دام يمتلك موهبة شعريّة يستحقّ معها أن يفوز بالتّقدير وحده، ولعلّها تعاظمت في نفسه لشدّة ما لاقى من الصّدّ وسوء التّقدير زمن تقلّبه بين ممالك الأندلس وأمرائها، قبل أن يسعفه جَدّه بالاستقرار في إشبيلية.

وما زال ابن عمّار يتفنّن في مدح المعتضد حتّى جاوز المبالغة إلى الغلوّ والشّطط في تقدير ذاته وتعظيم شعره، حتّى قال فيه، وقد استشعر صدوده[43]:

إنْ كُنْتُ مُعْتَقِدًا هَواكُمْ مِلَّةً فلقدْ تَلَوْتُ بِمَدْحِـــكُمْ قُرْآنَا

ومع ما أظهره الشّاعر في تلك المدائح من موهبة وذكاء وفطنة، إلاّ أنّ المعتضد لم ينزله المنزلة الّتي كان يعتقد أنّه يستحقّها، فأخذ يشكو ويرجو مدّعيًا الحبّ والولاء[44]:

ما لي يُعَطِّلُني زماني بَعْـــدَما حَلّيْتُ فيه بمَدْحِكَ الأَزْمانا

إنّي تَجِرْتُ وَرَأْسُ مالي حُبُّكُمُ أَيَحِلُّ لي أَنْ أَشْــتَكي خُسْرانا

بَدِّدْ دُجى لَيْلي بِأَقْمارِ النَّدى فَلَقَدْ بَقيتُ بِلَيْلِها حَـــيْرانا

ومن الواضح في هذه الأبيات أنّ ابن عمّار ظلّ على اعتداده وزهوه بموهبته الشّعريّة حتّى في شكواه، فالأزمنة قبل مدائحه كان عطلًا من الحليّ، فجاءت قصائده لتطّرزها وتجمّلها، ومع كلّ ما يظهره من تذلّل وخضوع إلاّ أنّه تذلّل كاذب وخضوع مصطنع؛ إذ لم يستطع إخفاء "أنا الشّاعر الفحل المتعالية"، وهي وظيفة نسقيّة مضمرة عند كلّ شاعر مدّاح، ولا يريد لهذه الوظيفة أن تتلاشى حتّى مع حاجته الشّديدة للقيام بدوره الّذي رسمته له كلّ من مؤسّسة السّلطة والمؤسّسة النّقديّة في اللعبة الجماليّة الأخطر والأكثر فاعليّة في تراثنا العربيّ الشّعريّ بطرفيها؛ الشّاعر الشّحاذ المنافق، والممدوح المصطفى المنزّه عن كلّ عيب ونقص.[45]

الإقصاء الأوّل عن المركز

ما كان للمعتضد- وهو الخبير بنفوس الرّجال- أن ينخدع بكلّ هذا النّفاق الشّعريّ الّذي حاول ابن عمّار أن يكسب به حظوته وعطاءه ويتّقي غضبه وطغيانه في آن معًا، كما ساءه تعلّق ولده المعتمد به واصطحابه له في كلّ مجالس أنسه، وإيثاره له على خاصّة أهله، وانشغاله به عن ملازمة أبيه وهو ولي عهده، ويروي ابن بسّام في "الذّخيرة" أنّ ابن عمّار أوجس خيفة في نفسه من المعتضد، ففرّ إلى شرق الأندلس[46]، وذكر ابن سعيد في "المغرب" أنّ فراره كان إلى سرقسطة[47]، أمّا المراكشيّ فقد ذكر أنّ المعتضد هو الّذي نفاه إلى سرقسطة بعد أن وَلِيَ المعتمد "شِلْب" من قبل أبيه؛ إذ استوزر المعتمد ابن عمّار في تلك الولاية، وسلّم إليه جميع أموره، فغلب عليه غلبة شديدة، وساءت السّمعة عنهما، فاقتضى نظر المعتضد التّفريق بينهما.[48]

وما كان لابن عمّار إلاّ أن يلجأ إلى الشّعر رسولًا بينه وبين صديقه المعتمد؛ يصف له بؤس حاله وضياع مآله بعد تفرّقهما وصفًا مبالغًا فيه؛ لعلّه يرقّ لحاله، فيتشفّع له عند أبيه، وممّا وصل إلينا من شعره قصيدته الّتي مطلعها[49]:

عَلَيَّ وَإِلاّ ما نِـياحُ الحَمائمِ وفِيّ وَإِلاّ ما بُكاءُ الغمائمِ

وحشد الشّاعر في هذه القصيدة من الألفاظ والمعاني والصّور الشّعريّة ما ينبئ عن غضبه الشّديد ممّا آلت إليه حاله بعد انقطاع وصله بالمعتمد، وخروجه رغم أنفه من إشبيلية؛ دار النّعيم ومستقرّ الحلم، وهو يعلم وقع ذلك في نفس المعتمد المطبوع على الرّأفة ورقّة المشاعر، فما الرّعد إلاّ طالب لثأره، وما البرق

إلاّ هزّة الصّارم للدّفاع عنه، والنّجوم لبست ثوب الحداد وأقامت المآتم، والرّياح الهوجاء شقّت جيوبها حزنًا على رحيله، والسّابحات العابسات الدّهم نَأَتْ به عن أرض المكارم والعلا، فما عاد له منها سوى زفرة نادم، ثمّ يستحضر الأيّام الخوالي بصحبة المعتمد، ويأسى عليها، ويصف مآله بين قوم "**لم يهذّب طباعهم لقاء أديب أو نوادر عالم**"، وما عاد له من ندامى سوى[50]:

صَعاليك هَاموا بالفَلاةِ فَتَدَرَّعوا جُلودَ الأفاعي تَحْتَ بَيْضِ النّعائمِ

وهذا الحديث عن استبدال الأدنى بالّذي هو خير دليل على ذكاء ابن عمّار وفطنته، فلا شيء يمكن أن يثير حزن المعتمد وشفقته أكثر من أن ينتهي خليله وصاحبه إلى هذا المصير السّيّئ، ومتى حقّقت القصيدة مرادها في نفس المعتمد، فلا بدّ له من مراجعة أبيه طالبًا عفوه ورضاه، ليعود صديقه إلى مركز الدّائرة من جديد.

وقد بالغ ابن عمّار في مدح المعتضد في ستّة وثلاثين بيتًا من القصيدة، حتّى ليكاد يجمع كلّ صفات الممدوحين من شجاعة وعدل وكرم وعراقة نسب في شخصه، فهو "**الحاجب الأعلى الّذي تطول بيمناه قصار الصّوارم**"، وهو "**صقيل رداء العرض**" و"**طاهر ماء الوجه**"، و"**له هزّة في الجود معتضديّة**"، كما أنّه "**مهيب التفات الطّرف سامٍ موقّر**"، وما تقلّد إلاّ "**حميلة سيف أو حمالة غارم**" كما أنّه وقومه "**ليوث حروب أو بدور مواسم**"، وهيهات أن يدانيه أحد في صفاته وأخلاقه.[51]

أمّا المعتمد فهو "**أغرّ مكين في القلوب محبّب**"، كما أنّه"**رقيق حواشي الطّبع**" و"**بارع حسن الخطّ**"، وإذا اهتزّت أقلامه جاءت ببديع النّثر وحكيم النّظم، ثمّ يعتذر إليه عن تقصير قصائده في استقصاء محاسنه وفضائله الّتي تعجز كتب التّراجم عن استيفائها، إلاّ أنّه لم يبلغ في مدحه مثلما بلغ في المعتضد، وإنّما لجأ إلى الاستعطاف والتذّلل إليه، مؤكّدًا ثقته بحظه من المعتمد فلا يخشى نَبْوة، ومتمنّيًا عودة أيّام مضت " **كأنّها إذا امتثلتها النّفس لذّة حالم**"، وإن سبق الموت إليه فهو قدر ربّ العالمين.

وهذه المغايرة في استخدام استراتيجيّات الخطاب بين مدح الأب وابنه تكشف عن استيعاب الشّاعر الدّقيق للاختلاف بين مزاج الابن وأبيه، فخاطب كلّاً منهما بما يبلغ معه أطيب الأثر في نفسه، لكنّ المتلقّي يستشعر عنتًا وإرهاقًا ذهنيًّا في مديحه للمعتضد لا يلمسه في مديحه للمعتمد، ومردّ ذلك إلى أمرين؛ أوّلهما استحضار ابن عمّار لشخصيّة المعتضد الطّاغية الّذي لن يتوانى يومًا عن البطش بخصم أغضبه، فليسعَ هو إلى استرضائه بأقصى ما يستطيع من تفنّن في شعره. وثانيهما أنّ المعتمد ما هو إلاّ جسر في هذه القصيدة

نحو أبيه صاحب السّلطان الّذي يثير الخوف والإعجاب، فمنه وعنده مربط الحلّ والعقد في شؤون السّياسة والحرب، وابن عمّار رجل طموح يرى أنّه يستحقّ أن يكون داخل هذه الدّائرة لا على هامشها، وما من سلاح له في هذه المرحلة سوى شعره، وما من معين له في غربته الإجباريّة سوى إطلاق العنان للمنافق الأفّاق المتملّق الكامن في داخله يهيم به في كلّ وادٍ ليوصله إلى مراده، مستعينًا بذلك بما سبق إليه الشّعراء من الأفكار والصّور والمعاني معيدًا صياغتها وفق أغراضه وأهدافه، وقد علّق ابن بسّام على صنيع ابن عمّار هذا في قصيدته بالقول: "أمّا معاني هذه القصيدة فمحجّة مسلوكة، ومُضغة مَلوكة، قد كثر تجاذب الشّعراء أهدابها، وقرعوا بابها، حتّى صارت كالجمل المذلّل، والمَهْيَع من السّبل".[52]

ولم ينسَ الشّاعر أن يعزف على أوتار حلمه وطموحه ببلوغ غاية المنى بالعودة إلى المركز مهما بذل من ثمن، وأعلن من خضوع، ومن ذلك قوله بعد الفراغ من مدح المعتمد[53]:

أنا العَبْدُ في ثوبِ الخُضوعِ لَوْ أنَّني أَرى البَدْرَ تـاجي والنُّجومَ خَواتمي

وَإِنِّي –إِذا أَنْصَفْتَ- بَعْدَكَ خادِمٌ لِدَهْري وَكانَ الدَّهْرُ عِنْدَكَ خادِمي

كما كتب ابن عمّار قصيدة أخرى إلى ابن زيدون يستشفعه لدى المعتضد، ومطلعها[54]:

كَيْفَ اعْتَزَزْتَ عَلى الدَّليلِ وَقَطَعْتَ أَسْبابَ الوُصولِ؟

لكنّه -في هذه القصيدة- لجأ إلى استراتيجيّة خطاب مختلفة عن تلك التّي ظهرت في ميميته للمعتمد؛ إذ عاتبه عتابًا لا يخلو من تذلّل لانقطاع أسباب الوصل بينهما، مذكّرًا إيّاه بالأيّام الخوالي ومجالس الأنس واللهو، ثمّ بدأ يخلع عليه من الصّفات أنبلها وأحسنها، فهو "**قرارة الشّرف الأثيل**"، و"**اليقظ النّبيل**"، و"**غرّة الزّمن البهيم**"، و"**عزّة الأدب الذّليل**"، و"**محكم القلم القصير على شبا الرّمح الطّويل**"، و"**أُنْس بدر في الظّلام**" و"**بَرْد ظلّ في المقيل**"، وكيف لا وابن زيدون شاعر فحل، بل إنّه أكثر فحولة من ابن عمّار، وأناه متضخّمة أكثر من صاحبه، لكن لا بأس هذه المرّة من إيصال ابن زيدون إلى ذروة الإحساس بالامتلاء من كلّ هذا المديح، ولا بأس من إظهار بعض التّذلل:

أَعَلِـــمْتَ أَنّي خــادِمٌ ذِكْراكَ بالشُّـــكْرِ الجَـــزيلِ

لَمْ أَسْتَحِلْ عَمّا عَهِدْ تَ مَعَ الزّمــانِ المُسْتَحيلِ

ما دامت غايته من كلّ ذلك:

اشْفَعْ عِنايَتَكَ الجَليـ لَةَ لي لَدى المَلِكِ الجَــليلِ

ومع كلّ ما أراق من ماء وجهه متذلّلًا مستعطفًا إلاّ أنّه لم يعد إلى إشبيلية إلاّ بعد وفاة المعتضد (461هـ/1069م)، ولا يُعرف فيما إذا كان قد اتّصل ببعض أمراء الطّوائف خلال مدّة نفيه، أم بقي يمنّي النّفس بالعودة إلى إشبيلية كلّ ذلك الوقت، فضياع الكثير من شعره فوّت فرصه تتبّع أثر إقصائه الأوّل عن المركز أكثر من ذلك.

التّحوّل الأكبر: الزّاوية المركزيّة

ما إن خلف المعتمد أباه في حكم إشبيلية حتّى أرسل في طلب ابن عمّار ليكون إلى جواره؛ وزيرًا ورجل دولة وصديقًا أثيرًا، وما كان لذلك الرّجل الانتهازيّ أن يفلت هذه الفرصة من بين يديه؛ إذ أدرك يقينًا أنّه في أكبر تحوّل في حياته امتدادًا وأخطره عمقًا، فبادر من فوره إلى التّموضع في زاوية مركزيّة يقع رأسها على مركز دائرة السّلطة، وتحتلّ أكبر مساحة في زوايا الدّائرة كلّها، فسلك سلوك طبقة الأشراف في مجتمعه، وسعى بكلّ طاقاته وإمكاناته إلى تأصيل نفوذه، وتشديد قبضته على مفاصل الحكم، وتوسيع أملاكه، وإنماء ثروته على حساب الحاكم الرّسميّ لإشبيلية، فصال وجال في الشّؤون الدّاخليّة والخارجيّة للدّولة، وعقد الصّفقات مع العدوّ على حساب خزانة الدّولة، وقد تسبّبت مغامراته غير المحسوبة -ولا سيّما معاهداته المذلّة مع الأذفونش- في إضعاف ملك بني عبّاد، والتّعجيل في سقوط دولتهم.

وتُظهر سيرة ابن عمّار- الوزير ورجل الدّولة- في المصادر أنّه لم ينفع أحدًا سوى نفسه؛ إذ سعى إلى التّخلّص من منافسيه في بلاط المعتمد تدريجيًّا، وفي مقدّمتهم ابن زيدون الّذي أزرى به أيّام المعتضد، وفاقه مكانة اجتماعيّة وسياسيّة وأدبيّة؛ بنسبه العربيّ العريق، وثراء أسرته، وطول تمرّسه في الوزارة، وموهبته الشّعريّة الّتي نالت إعجاب السّاسة والنّقّاد في عصره، فتضافرت عوامل كثيرة في نفس ابن عمّار جعلته يحقد على كلّ ما يمثله ابن زيدون من مزايا يفتقر إليها افتقارًا شديدًا، وأشار على المعتمد أن يرسل ابن زيدون إلى إشبيلية لإخماد ثورة هناك وقد كانوا وصلوا للتّوّ إلى قرطبة، فما احتمل ابن زيدون مشاق السّفر وقد طعن في السّنّ، وتوفّي بُعيد وصوله إلى إشبيلية بقليل، وخلت السّاحة لابن عمّار حتّى غدا صاحب النّفوذ الأوحد في بلاط المعتمد، ولم تستطع اعتماد الرّميكيّة -الّتي استشعرت خطر هذا الرّجل على زوجها والأندلس - من تحجيم دوره في إدارة شؤون الدّولة، على عظيم مكانتها في نفس المعتمد.

وتصدّى ابن عمّار لمواجهة الخطر الخارجيّ على إشبيلية بمكره وحيلته في التّعامل مع الأذفونش، حتّى وقع من نفسه موقعًا حسنًا، فأطلق عليه لقب (رجل الجزيرة)، وتعزّزت العلاقة بين الرّجلين حين استشعر ابن عمّار القوّة المتنامية للممالك الإسبانيّة ووعى حقيقة ضعف الممالك الأندلسيّة، فراهن على أنّ الأذفونش سيكون حليفًا قويًّا له في تحقيق أطماعه القادمة بعد أن التقت مصالحهما، وأخذ ابن عمّار يتباهى بالصّداقة الوثيقة بينهما، وازداد إحساسه بتعاظم نفوذه حتّى على المعتمد نفسه، وبدأ يتّخذ قرارات مصيريّة دون الرّجوع إليه أو مشاورته، وحمّل خزانة الدّولة فوق طاقتها بالجزية الّتي تعهد بدفعها للأذفونش مقابل رجوعه عن دخول إشبيلية، ولم يكن في تدبير شؤون الدّولة أكثر من لاعب شطرنج نرجسيّ أحمق يظنّ في نفسه الحنكة السّياسيّة، بينما هو – في حقيقة الأمر- يذلّل السّبيل للأذفونش للاستيلاء على إشبيلية وسواها من مدن الأندلس، فكتب بذلك مصيره ومصير مليكه في آن معًا دون أن يدرك.

وعند تتبّع شعر ابن عمّار في هذه المرحلة من حياته يلاحظ أنّه كان مسكونًا بإحساس الانعتاق من شدائد الزّمن الماضي باطنًا، والانغماس في لذّات الحاضر ظاهرًا، وبدا كما لو أنّه تقلّب في النّعيم منذ أبصرت عيناه النّور، وسلك سلوك أبناء الطّبقة الغنيّة؛ فمن وصف مجالس أنس وسمر ولهو وخمر، وسجال شعريّ بينه وبين المعتمد سجال الأكفاء والأنداد، إلى قصائد يراود فيها علية القوم – في إشبيلية وسواها- عن صداقة ظاهرة ومصالح باطنة، وتغزّل بالقيان والغلمان، وغيرها من الموضوعات الشّعريّة الّتي لم يألفها الشّاعر في حياته السّابقة.

وقد وصل إلينا عدد من القصائد والمقطوعات الّتي تكشف عمّا طرأ على الشّاعر المهمّش وشعره الجديد من تحوّل في ظلال السّلطة المركزيّة في إشبيلية؛ إذ بدا الشّاعر راضيًا عمّا آلت إليه حاله بعد أن حدّثته نفسه أنّه خلع أخيرًا رداء البؤس، وتودّع من أيّام الفقر وذلّ السّؤال، لكنّ شعره سار في اتّجاه معاكس.

أمّا شعر المديح فقد تراجع كمًّا ونوعًا في هذه المرحلة في حياته؛ إذ لا يكاد شعره في المعتمد يبلغ شيئًا إذا قورن بشعره في مدح أبيه، وكلّ ما وصل إلينا من شعره في هذا السّياق قصيدة في ثلاثة عشر بيتًا، وأخرى في ثمانية أبيات، فضلًا عن بيتين أرفقهما مع هدية في يوم عيد، ومساجلتين بينهما، وقصيدة في استعطاف المعتمد عند أسر الرّشيد لدى ملك برشلونة بسبب سوء تقدير ابن عمّار واندفاعه، وهي في أحد عشر بيتًا، وبذلك فإنّ مجمل ما وصل إلينا ممّا قاله في مدح المعتمد -الّذي شرّع له أبواب السّلطة والجاه

والمال- بلغ واحدًا وعشرين بيتًا فقط، وما حظّ من اتّصل بهم من ملوك الطّوائف في تلك المرحلة من حياته بأفضل من حظّ المعتمد من شعره.

وأمّا شعره في الإخوانيّات والغزل ووصف مجالس اللهو والخمر فقد جاء في مقطوعات قصيرة غلب عليها الجهد العقليّ والصّنعة والتّكلّف والتّلاعب اللفظيّ، ولم تحظَ بإعجاب عدد من النّقّاد القدماء والمعاصرين.[55]

وعند الوقوف على قصيدتيه في مدح المعتمد يُلاحظ أنّ القصيدة الأولى كانت بمناسبة نزول المعتمد في بعض الحصون، ومطلعها[56]:

على اليُمْنِ والطّائِرِ السّانِحِ نَزَلْتَ وَغَيْرُكَ لِلْبارِحِ

وغلب على هذه القصيدة الصّنعة والتّكلّف، وبهتت معاني المديح حتّى كأنّ صاحب هذه القصيدة شخص آخر غير ذاك الّذي نظم القصائد العصماء في مدح المعتضد، فاكتفى بمخاطبته بـ"**ملك الملوك**"، ووصفه بأنّه "**صاحب حلم راجح**" و"**بأس هادم ناطح**"، وشبّهه بـ"**غرّة القمر اللائح**"، وبدا كأنّه يجرّ الكلمات جرًّا لتكتمل له القافية، وحين آن أوان الحديث عن كرمه اكتفى بالقول:

ولا النَّهْرُ لَمْ يُثْنِني عن وُرو دِ نَدى بَحْرِكَ الزّاخِرِ الطّافِحِ

أمّا القصيدة الثّانية فجاءت بعد صنيع قدّمه له المعتمد، ومطلعها[57]:

أَفي كُلِّ يَوْمٍ تُحْفَةٌ وَتَقَفُّدُ بِفَضْلِ نَوالٍ وَاهْتِبالٍ يُؤَكّدُ

اقتصر مديحه فيها على كرم المعتمد لا غير، فلا شجاعة ولا بطولة ولا عراقة نسب كما ينبغي في مدح الملوك، وبدا الشّاعر متمحورًا حول ذاته بصورة لافتة من خلال الإكثار من استخدام صيغة المتكلّم، فهو لا يمدح كرم مليكه بقدر ما يمدح نفسه وامتنانه وتقديره لهذا الكرم، وفي ذلك يقول:

لَقَدْ هَزَّ أَعْطافَ القَوافي وَهَزَّني إِلى شُكْرِ إِحْسانٍ أَغيبُ فَيَشْهَدُ

فَإِنْ أَنا لَمْ أَشْكُرْكَ صادِقَ نِيَّةٍ تَقومُ عَلَيْها آيَةُ النُّصْحِ تَعْضُدُ

فَلا صَحَّ لي دينٌ وَلا بَرَّ مَذْهَبٌ وَلا كَرُمَتْ نَفسٌ وَلا طابَ مَوْلِدُ

وعلى غير عادة الشّعراء في الوقوف بين أيدي الملوك في الأعياد لإنشاد الشّعر ونيل العطايا، تشير المصادر إلى أنّ ابن عمّار أهدى المعتمد ثوبًا من صوف بحريّ، مشفوعًا ببيتين من الشّعر، وردّ عليهما المعتمد في أربعة أبيات[58]، فهل هذا صنيع وزير تجاه مليكه؟ وهل هذا ما يستحقّه المعتمد بعد ما أنعم عليه من الجاه والمال؟

يرى ابن بسّام أنّ ابن عمّار قد غلب على المعتمد وأساء إلى سيرته وتسبّب في إضاعة الأمر وتعطيل الثّغر، ويستشهد بشعر أرسله المعتمد إلى بعض كرائمه- ولعلّها اعتماد- حين كان في قرطبة يدير بعض الأمور السّلطانيّة، ويعتذر عن اللحاق بها، وآخره "**إن شاء ربيّ أو شاء ابن عمّار**"، وكتب إلى ابن عمّار يستشيره، فأجابه بما يهتك ستر الحرم، ولا يليق بخطاب وزير لمليكه، بأن يعود إلى إشبيلية، وأن يسعى "**قبل خلع نجاد السّيف**" إلى "**ذات الوشاح**"، وأن يأخذ "**للحبّ بالثّار ضمًّا ولثمًا**"[59]، ولا أخطر على ملك من رجل جاء من الهامش، ثمّ أخذته سطوة المستقوي، وظنّ نفسه ندًّا وكفُؤًا لمن رفع قدره وأعظم شأنه.

لكنّ ابن عمّار إذا زلّت قدمه في أمر كان حاضرًا بشعره للاعتذار من المعتمد واستعطافه بالعفو عنه، ومن ذلك قصيدته بعد تسبّبه بأسر ولده الأمير الرّشيد لدى ملك برشلونة، ولكنّه لم ينس أن يمزجها بتذكيره بجميل صنائعه في دولته، ويمنّ على المعتمد بفضله، وفيها يقول[60]:

وَأَعْلَمُ أَنَّ العَفْوَ مِنْــكَ سَجِيَّةٌ فَلَمْ يَبْقَ إِلاّ أَنْ تُخَفِّفَ مِنْ عَتْبِ

فَلي حَسَناتٌ لَوْ أَمُتُّ بِبَعْضِها إِلى الدَّهْــرِ لَمْ يَرْتَعْ لِنائِبَةٍ سِرْبِي

وقد ذهب صلاح خالص إلى أنّ الحكم على "شعر ابن عمّار في هذه الفترة يعوزه كثير من الدّقة والإحكام، إذ لا شكّ أنّ ما لدينا من إنتاج الشّاعر لا يعدو أن يكون قليلًا من كثير اختفى"[61]، ورجّح أنّ اختيارات النّقّاد في ذلك العصر قد تكون فوّتت ما يعتدّ به من شعر ابن عمّار وغيره، لكنّه عاد ونظر إلى مجمل شعره في تلك المرحلة من حياته، وخلص إلى أن أسباب قلّة شعره وضعفه عائد إلى انشغاله بتدبير أمور الدّولة، وما عاد الشّعر يشكّل له سوى وسيلة للمتعة والتّسلية، فغلب موضوع الإخوانيّات والمساجلات على شعره، ورأى أنّ مديحه في المعتمد هو من باب مدح الوزير لمليكه أو الصّديق لصديقه، فهو شعر ولاء لا شعر استعطاف واستجداء[62]، ومع ذلك فلا يكاد النّاظر في تلك النّماذج يرى أثرًا لولاء ولا لصداقة.

ثمّ يورد الباحث سببًا آخر لضعف شعر ابن عمّار آنذاك؛ إذ إنّه مع تبدّل طبقته الاجتماعيّة وجد نفسه أمام موضوعات شعريّة جديدة، وليس من السّهولة أن ينظم في أغراض لم يألفها، بعد أن اعتاد شعر المديح وما يتّصل به من شكوى واستعطاف، وأنّ الدّوافع الّتي جعلته ينظم أجود الشّعر في الماضي قد اختفت بعد أن وصل إلى تحقيق أهدافه ومطامحه، والشّعر عنده وسيلة لا غاية، وقد انتفت الوسيلة ببلوغ الغاية.[63]

لقد أصاب صلاح خالص في وصف شعر ابن عمّار بأنّه شعر تكسّب، لكنّ ضعف شعره في هذه المرحلة لم يكن بسبب انشغاله بشؤون الدّولة أو عدم ألفته للموضوعات الجديدة، بقدر ما كان مرآة عاكسة لتموضعه في الزّاوية المركزيّة للسّلطة بعد عقود من التّهميش، فنأى بنفسه عن المديح بعد أن أصبح رجل الدّولة الأهمّ في عصره، وفاضت يداه بالمال والعطايا، ولعلّه رأى أنّ منزلته تستحقّ أن يكون ممدوحًا لا مادحًا، كما أنّه رجل مطبوع على الغدر وقلّة الوفاء وسوء الأدب كما ستروي سيرته اللاحقة، وأغلب الظّنّ أنّه رأي أنّه استحقّ مكانته الجديدة بكدّه وتعبه ومواهبه الخلاّقة لا بصنيع المعتمد ومَنّه، وهو ما يؤكّد أصالة النّزعة النّرجسيّة في شخصيّته، كما أنّ المعتمد بما طبع عليه من لين الجانب ورقّة الحاشية قد أطمعه في تجاوزه والتّعالي عليه في الشّعر وعلى أرض الواقع، وذلك على النّقيض من المعتضد الطّاغية الّذي راوح في مديحه بين الرّغبة والرّهبة، لكن ستكشف له الأيّام أنّ العرب قد صدقت حين قالت: "الولد سرّ أبيه".

المركز الموازي

لم يكتفِ ابن عمّار بما وصل إليه من أحلامه وطموحاته في بلاط إشبيليّة، وتاقت نفسه لممارسة دور سلطويّ أكثر مركزيّة ونفوذًا، فوجد في مرسية بغيته؛ إذ أوفده المعتمد على رأس جيش لحيازتها وضمّها إلى إشبيلية، لكنّه آثر الاستحواذ عليها، وتدبير شؤونها تدبير الملوك ذوي الشّأن، ولعلّ هذا الموقف هو أكثر ما أوغر الصّدور عليه، سواء رجالات الأندلس المعاصرين له، أو المؤرّخين اللاحقين عليه؛ إذ وجدوا في نكثه لعهد المعتمد وخلع طاعته- بعد أن رفعه إلى المراتب السّامية- واستبداده بأمر مرسية قلّة وفاء وكفر نعمة وخداع ومكر.

ولمّا أرسل المعتمد بيتين مشهورين من الشّعر إلى ابن عمّار يعاتبه فيهما على نكث عهده، أجابه بقصيدة يؤكّد أن ما سمعه من خبر تمرّده في مرسية ما هو إلا وشاية حاقدين ونمّامين، وأكّد ولاءه للمعتمد، مذكّرًا إيّاه بما قدّمه من خدمات جليلة وتضحيات جسيمة، ورغم قوله إنّه عبد طاعة مليكه، إلاّ أنّه أخذ

يخاطبه بلهجة تحذيريّة لا تليق بخطاب الملوك، ولا تشي بأنّه ما يزال يحفظ شيئًا من الودّ القديم بينهما[64]، وممّا قاله[65]:

أَعِــدْ نَظَرًا لا تُوهِـــــنِ الرَّأْيَ إِنَّهُ قَديمًا نَبا هـــافٍ وَأَدْرَكَ رائِثُ

سَتَذْكُرُني إِنْ بانَ حَبْلي وَأَصْبَحَتْ تَئِنُّ بِكَفَّيْكَ الحِـــبالُ الرّثائِثُ

وَتَطْلُبُني إِنْ غـابَ لِلرَّأيِ حــاضِرٌ وَقَدْ غابَ مِنّي لِلْخَواطِرِ باعِثُ

وفي مرسية سعى ابن عمّار إلى ترسيخ صورته حاكمًا، فاتّخذ لنفسه بطانة من الوزراء والمساعدين، وفي مقدّمتهم ابن رشيق، وانصرف إلى اللهو والخمر والتّمتّع بملذّات الدّنيا تمتّع المرتوي بعد طول ظمأ، وعاد لنظم الشّعر من جديد، لكنّ ما وصل إلينا من شعره يظهر أنّه اتّخذه سلاحًا لمهاجاة أمراء الطّوائف الّذين أظهروا له العداء السّافر، ولعلّه استقوى على جلب عدائهم بعلاقته المريبة بالأذفونش، وظنّ فيه حليفًا قويًّا ونصيرًا إن لزم الأمر، كما حفظت المصادر بعض شعره في وصف مجالس أنسه وسمره، لكنّه لم يضف إلى قيمته الشّعريّة شيئًا يذكر.

ولكي تكتمل تفاصيل هذه الحياة الرّغدة المنعّمة، كان لا بدّ له من استقطاب الشّعراء لمدحه وتخليد ذكره، وممّن كتب إليه أبو عيسى بن لُبون الّذي خاطبه خطاب الملوك؛ طالبًا رفده ومستجديًا عطاءه بقصيدة مطلعها[66]:

خُتمتْ بِعصْرِكَ أَعْصُرُ الأجوادِ وَعَنَــت لذِكْرِكَ أَلْسُـنُ الوُرّادِ

وقد لاقت هذه القصيدة استحسان ابن عمّار بعد أن دغدغت طموحه، فاستعاد قدراته الشّعريّة الّتي عطّلها أيّام وزارته للمعتمد، وأجابه "بهذه القصيدة الفريدة الّتي برز فيها، وأحسن ما شاء في ألفاظها ومعانيها، وأوّلها"[67]:

عَطَّلْتُ مِنْ حَلْيِ السُّروجِ جِيادي وَسَلَبْتُ أَعْناقَ الرِّجالِ صعادي

وَثَنَيْتُ عَزْمي عَنْ مَسيرٍ هَـــزَّني سَعـــدي إِلَيْهِ وَحَثَّني إِسْعادي

وَسَلَلْتُ مِنْ ثَوْبِ المُروءةِ وَالوَفا ثَوْبي وَحُـــــلْتُ عَلى بَني عَبّادِ

والأبيات السّابقة تكشف تضخّم أنا الشّاعر بعد أن ظنّ نفسه قد أصبح مركزًا سلطويًّا يوازي مراكز أمراء الطّوائف بحظّه وجهده، ويعترف في الوقت نفسه بانعدام مروءته وقلّة وفائه للمعتمد، وهو من أسوأ ما يمكن أن يجتمع في شخص في آن معًا، إلاّ أنّ الشّاعر أفاض في مديح ابن لُبون بما لم يمدح به المعتمد نفسه، بعد أن أرضى الأوّل غروره، وأسمعه ما يحبّه ويظنّ أنّه يستحقّه، وهذان الشّاعران تتلاقى سيرتاهما على نحو عجيب؛ إذ كان ابن لُبون من وزراء القادر في طليطلة، ثمّ حاز مربيطر في شمال بلنسية لنفسه، فأمّه الشّعراء، وقصده الكبراء، إلاّ أنّ ابن رَزين خدعه، وأخرجه منها، وله شعر نال استحسان نقّاد عصره.[68]

وفي هذه المرحلة من حياته بدأ موضوع جديد يظهر في شعره، وهو الفخر بالنّفس فخرًا يكشف عن أنّ هذا الرّجل ما فارقه الإحساس يومًا أنّه ينتمي إلى الهامش مهما طرأ على حياته من تحوّلات، ومهما أظهر من انتماء إلى مركز الحياة ومتنها، وماضيه ظلّ يطارده ولم ينعتق منه، وأكثر ما يُلمس هذا الشّعور في قوله[69]:

أَنا ابْنُ عَمّارٍ لا أَخْفى عَلى أَحَدٍ إلاَّ عَلى جاهِلٍ بِالشَّمْسِ وَالقَمَرِ

إِنْ كانَ أَخَّرَني دَهْري فَلا عَجَبٌ فَوائِدُ الكُتْبِ قَدْ يُلْحَقْنَ بِالطُّرَرِ

لكنّه في هذا المجتمع الطّبقيّ -المنشغل بالأنساب وأصل المنبت- ما كان يكفيه الانتساب إلى نفسه، وهو يعي هذا أكثر من غيره، فبدأ بنسج تاريخ وهميّ لعائلته في شعره، وذلك في قصيدته الّتي توعّد فيها أمير بلنسية لنقضه العهد بينهما، وانحيازه لابن طاهر بعد أن خلعه ابن عمّار عن مرسية، ومطلعها[70]:

كَيْفَ التَّخَلُّصُ بِالخَديعَةِ مِنْ يَدَيْ رَجُلِ الحَقيقَةِ مِنْ بَني عَمّارِ

وقد حشد فيها من صفات الفخر بنفسه ما ينسجم ونرجسيّته الطّاغية، فهو رجل مجرّب محنّك عركته التّجارب، و"**سلس القياد**"، و"**فطن لأسرار المكايد**"، و"**كشّاف مظلمة وسائس أمّة ونفّاع أهل زمانه الضّرّار**"، وغير ذلك من الصّفات النّبيلة الّتي لم يَحشد مثلها في قصيدة واحدة إلاّ للمعتضد، وعلى الأرجح أنّه كان شديد الإعجاب بشخصيّة المعتضد الحاكم الطّاغية المستبدّ، وأراد أن يكون صورة عنه.

وروت بعض المصادر[71] أنّ المعتمد لمّا وصل إليه خبر هذه القصيدة، نظم قصيدة بدأها ببيت ابن عمّار السّابق، ثمّ بدأ في الأبيات الّتي تليها – ساخرًا متندّرًا- بتعداد فضائل قومه وإنجازاتهم، "**الأكثرين مسوّدًا ومملّكًا ومتوّجًا**"، و"**المؤثرين على العيال بزادهم**"، و"**النّاهضين من المهود إلى العلا**"، و "**الزُّهر الوجوه**"، والّذين "**إِنْ كُوثِروا كانوا الحَصى أَوْ فُوخِروا فَمِنَ الأَكاسِرِ مِنْ بَني الأَحْرارِ**"، وختمها بقوله[72]:

لَمّا نَماهُمْ لِلْعُلا عَمّارُهُمْ تَرَكوا العُداةَ قَصيرَةَ الأَعْمارِ

وقد أوغرت هذه القصيدة صدر ابن عمّار على المعتمد، فقد واجهه بحقيقة نفسه، وأنّه رجل جاء من الهامش، وسيبقى أسير ذلك الهامش ولن ينعتق منه مهما فعل، وهي قصيدة تكشف في الوقت نفسه أنّ الفوارق بين ربيب المركز وربيب الهامش لا تذوب مهمّا تبدّل بهما الزّمان، والمعتمد نفسه عاش في القصر ومات في الأسر، وهو في نظر عينه وتقدير سواه ابن الملوك وسليل بني عبّاد من بني ماء السّماء ملوك لخم، وابن عمّار ابن شلب الخاملة الذّكر وابن شمس الفقيرة المعدمة الّتي عرّض بها المعتمد في قصيدته، فثارت في نفس ابن عمّار غريزة الانتقام، وكتب قصيدة في هجاء زوج المعتمد اعتماد؛ مذكّرًا إيّاه أنّه وهذه الجارية الّتي اتّخذها زوجًا له ينتميان إلى أصل واحد، وهي قصيدة ترفّع أغلب المؤرّخين عن إيراد ما فيها من هجاء لزوج المعتمد وأبنائه لما فيها من فحش، فضلاً عن موقفهم السّلبيّ من ابن عمّار، واكتفى من أورد هذه القصّة بالإشارة إليها أو إيراد أبياتها الأولى، ومطلعها[73]:

أَلا حَيِّ بِالغَرْبِ حَيًّا حَلالا أَناخوا جِمالا وَحازوا جَمالا

وفيها يذكّر ابن عمّار المعتمد بأصل منبت زوجه، ويعرّض بنسب أبنائه، ويهجو المعتمد نفسه بأقذع الصّفات، ومنها قوله[74]:

تَخَيَّرَها مِنْ بَناتِ الهِجــا نِ رَمَيْكيَّةً ما تُساوي عِقالا

فَجاءَتْ بِكُلِّ قَصير العِذا رِ لَئيمِ النُّجارَيْنِ عَمًّا وَخالا

لكنّ ابن عمّار لم يعبّر عن حقده على زوج المعتمد بقدر تعبيره عن منظومة عصره، فاعتماد الّتي أعتقها المعتمد ثمّ تزوّجها، عاشت في حياتها وفي كتب المؤرّخين وماتت وهي جارية الرّميك بن الحجّاج، ولم يشفع لها أنّها أصبحت السّلطانة وأم أمراء بني عبّاد على الحقيقة، ولم تشفع لها حرّيتها الّتي وُهبتها في التّخلّص من تبعيّتها للرّميك، فقدر الإنسان آنذاك أن يعيش ويموت في دائرة أصل منبته، ومهما وضع الإسلام من تشريعات تفاضل بين النّاس على أساس التّقوى، فيندر أن يلمس أثر ذلك على أرض الواقع، باستثناء الجيل الأوّل من صحابة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- في عموم سيرهم وتراجمهم، وما دام الإسلام لا يشكّل منظومة متكاملة لبناء الأفراد والمجتمعات المسلمة، ستبقى الأنساق الثّقافيّة الّتي تجذّرت

عبر قرون طويلة في المجتمعات القبليّة تطغى على المشهد وتسوسه، وسيبقى المجتمع تراتبيًّا بين سيّد ومولى وعبد مهما تغيّر مظهره الخارجيّ.

الإقصاء الثّاني عن المركز

ذكر بعض المؤرّخين أنّ ابن عمّار كان حريصًا على ألاّ تخرج لاميّته الّتي هجا فيها المعتمد وأهله من دائرة المقرّبين إليه، فهو مع استقلاله بمرسية ما يزال يخشى غضبة المعتمد، لكنّها وصلت إلى ابن عبد العزيز، فبادر بإرسالها إلى المعتمد الّذي استشاط غاضبًا ومتوعّدًا ابن عمّار لسوء أدبه وفحش هجائه، متحيّنًا الفرصة للانتقام منه.

وكان أن توجّه ابن عمار إلى طليطلة لقيادة الانقلاب على ملكها القادر، وحيازة المدينة مدّعيًا أنّه رسول الأذفونش إليهم، لكنّه تصرّف كمن يريد أن يستولي على طليطلة كما استولى على مرسية من قبل، ويوسّع ملكه، ومن يدري فربّما كان هذا الرّجل قد حدّثته نفسه أن يستولي على ما يستطيع من مدن الأندلس ليؤسّس أكبر مملكة في عصره، ويكون هو الملك الأقوى بين ملوك الطّوائف، وهو ما ينسجم مع طبيعة تكوينه ونفسيّته، لكنّ محاولته باءت بالفشل بعد أن اكتشف القادر المؤامرة وأحبطها، فانقلب عنها إلى سرقسطة.[75]

وعند مغادرة ابن عمّار إلى طليطلة، انتهز ابن رشيق الفرصة -بعد أن نجح ابن عبد العزيز في استمالته إليه- للانتقام من ابن عمّار وخلعه عن مرسية ، فانقلب عليه واستولى على ثروته الطّائلة، وطرد أهله من المدينة، واسترضى الأذفونش وقدّم له الولاء والطّاعة، فأصبح ابن عمّار -كما وصفه صلاح خالص- "كالسّارق الّذي سُرق منه ما سَرقه"[76]، ولم يجد ملاذًا له سوى سرقسطه؛ منفاه الأوّل زمن المعتضد، فاستقرّ خادمًا عند ملكها المؤتمن الّذي قرّبه أملًا في أن يفيد منه كما أفاد منه المعتمد من قبل، ولم يكن لابن عمّار في بلاط ابن هود نشاط أدبيّ يذكر ؛ إذ ركّز جهوده في نشاطه السّياسيّ الماكر، مؤمّلاً أن تلاقي صنائعه عند المؤتمن ما لاقته عند المعتمد من قبل، فيستعيد بعض مكانته الّتي فقدها بعد غدر ابن رشيق به، فنجح في إخضاع قلعة من قلاع سرقسطة المنيعة الّتي تمرّد قائدها على ابن هود، واحتال لدخولها وقتْل صاحبها غيلة في عدد محدود من الجند، ثمّ وجّهه المؤتمن لإخضاع بني سهيل في قلعة شَقُورة بعد أن خلعوا طاعته، ولجأ ابن عمّار إلى الحيلة نفسها، لكنّ بني سهيل –الّذين لم ينجوا من هجائه حين كان حاكمًا لمرسية- سبقوا إلى اقتناصه هذه المرّة، ووضعوه في السّجن، وعرضوه للبيع لمن يشتريه بثمن أغلى.

وسار ابن عمّار في منفاه الثّاني سيرته في منفاه الأوّل، فأعمل طاقاته الشّعريّة المعطّلة من جديد، وأخذ يراسل بعض المقرّبين إليه بشعره لعلّ أحدهم يخلّصه من سجنه، ومنهم الفضل بن حسداي الّذي كتب إليه من سجنه بشقورة قصيدة ذات مستوى فنّيّ جيّد، ومطلعها[77]:

أدْرِكْ أَخاكَ وَلَوْ بِقافِيَةٍ كَالطَّلِّ يُوقِظُ نائِمَ الزَّهْرِ

وأخذ يصف له سوء المآل، ويستذكر صحبتهما القديمة، كما وصف منعة الحصن الّذي سُجن فيه، لكنّه لم يلقَ منه جوابًا على ما يبدو؛ إذ لم تشر المصادر إلى ذلك، وهو أمر متوقّع، فقد استشعر النّاس أن (رجل الجزيرة) قد سقط أخيرًا، وما عاد في تقرّبهم منه أيّ مغنم.

وما فتئ ابن عمّار يستعمل سلاحه الشّعريّ في الذّود عن نفسه، ومقاومة مصيره البائس في السّجن، فأرسل قصيدة تلو أخرى لعلّها تلاقي نخوة أحد الأصدقاء أو النّدماء، لكن هيهات، فابن عمّار اليوم ليس هو ابن عمّار الأمس، وقد غارت النّفوس عليه بعد ما لاقوا من تكبّره وقلّة مروءته وغدره، وذاقوا الكثير من ويلات مؤامراته ودسائسه، وعرف أنّ بني عبد العزيز عرضوه للبيع، فكتب إلى صاحب ألمرية مستعطفًا[78]:

أَصْبَحْتُ في السّوقِ يُنادى عَلى رَأْسي بِأَنْواعٍ مِنَ المـــــالِ

فَهَـلْ فَتًى يُباغِـتُني ماجِـــــدٌ أَخْـدِمُهُ مُـــــدَّةَ إِمْــهالي

ولمّا لم تؤتِ محاولاته أكلها، عرف أنّه ما عاد له سوى صاحبه القديم، فكتب إليه أبياتًا يستعطفه فيها ويثير شفقته عليه، وأن يفتديه بالمال، ويتذلّل إليه، ويظهر له الخضوع والطّاعة، ومطلعها[79]:

نَفْسي تَحِنُّ إِلى فِداءٍ تَفْديكَ نَفْسي مِنْ شِراءِ

لكنّ المعتمد لم يكن ينتظر طلب ابن عمّار هذا؛ إذ أرسل ابنه الرّاضي لشرائه وشراء القلعة معه، وما إن علم ابن عمّار بقدومه حتّى نظم فيه قصيدة يعلن فرحه بقدومه، وتفاؤله بفكّ أسره، متذلّلاً كعادته عندما يدور الزّمان عليه، معلنًا وضع خدّه في الثّرى شكرًا للمعتمد وتيمّنًا ببنيه، لكنّ الرّاضي أعاده إلى إشبيلية مأسورًا مذلولاً، وأمر المعتمد بإيداعه في سجن القصر انتظارًا لملاقاة مصيره المحتوم.

الهامش: المنتهى

لعلّ ابن عمّار لم يعرف معنى الخوف والخطر في حياته مثلما عرفه في سجن إشبيلية، على بعد خطوات من صاحبه القديم الّذي كان يجيد التّلاعب بعواطفه ومشاعره في الماضي، فاستيقظت في نفسه أقصى طاقاته الشّعريّة الّتي لم يحظَ المعتمد سوى بالنّزر اليسير منها لأكثر من ربع قرن، لكنّ الرّهان اليوم ليس على منصب أو مكانة أو جاه، إنّما على رأسه، وعليه أن يحتال بشعره للنجاة من الموت هذه المرّة، فكانت قصائده في هذه المرحلة من أجود ما نظم من شعر بعد مدائحه في المعتضد، فكتب أوّلًا إلى أبناء المعتمد يستشفعهم عند أبيهم، كما كتب إلى ابن هود في سرقسطة وربّما غيره، لكنّ قصائده لم تجد صدى في نفوسهم بعد أن قطع ابن عمّار -بجشعه وغدره وقلّة مروءته ولسانه المقذع- كلّ أسباب الوصل مع أولياء نعمته، فلم يجد مفرًّا من الكتابة إلى المعتمد، ويقال إنّها آخر ما كتب في حياته، ومن المفارقة أن تكون هذه القصيدة أجمل ما كتب إليه من شعر، ومطلعها[80]:

سَجاياكَ إِنْ عافَيْتَ أَنْدى وَأَسْمَحُ وَعُذْرُكَ إِنْ عاقَبْتَ أَجْلى وَأَوْضَحُ

ومع كلّ ما شرخه ابن عمّار في نفس المعتمد الّذي اصطفاه وأحبّه، إلاّ أنّه لم يغيّر في استراتيجيّة خطابه شيئًا في هذه القصيدة، فلجأ إلى التّذلل والاستعطاف والاعتراف بذنبه وإعلان ندمه على ما فات، وفي الوقت نفسه تنصّل من دوره في فصم عرى العلاقة بينهما، متّهمًا الوشاة والأعداء، وفي مقدّمتهم بنو عبد العزيز ، بالتّحريض عليه، واتّهامه عند المعتمد، ثمّ يعود -كما ألف دائمًا- إلى تذكير المعتمد بما أسلف من ودّ وخدمة "**يكرّان في ليل الخطايا فيصبح**"، ويختم القصيدة بما يظنّ أنّه قد يلامس عطف المعتمد ورقّة طبعه، فيصفح عنه، ويخرجه من سجنه، ويقرّبه إليه في المركز من جديد، وإن أظهر -زيفًا وخداعًا- تقبّله لفكرة مواجهة الموت على يد صاحبه:

سَلامٌ عَلَيْهِ كَيْفَ دارَ بِهِ الهَوى إِلَيَّ فَيَدْنو أَوْ عَـلَيَّ فَيَـنْزَحُ

وَيَهْنيهِ إِنْ مُتُّ السُّـــلُوَّ فَإِنَّني أَموتُ وَلي شَوْقٌ إِلَيْهِ مُبَرَّحُ

لكنّ المعتضد هذه المرّة- لأوّل مرّة وآخرها- استيقظ في صدر المعتمد، فقتل صاحبه وصفيّه وخليله الأقرب بيده، وبالصّولجان الّذي أتي به ابن عمّار هدية للمعتمد من الأذفونش، وما درى يومها أنّه قد أحضر كفنه معه.

وضاعف قسوة مصير ابن عمّار أنّه لم يحظَ برثاء بعد مقتله سوى ببيت واحد جمع بين نقيضين؛ البكاء على قتله، ومديح قاتله، وهو بيت لابن عبدون يقول فيه[81]:

عَجَبًا أَبْكيهِ مِلْءَ مَدامِعي وَأَقولُ لا شُلَّتْ يَمينُ القاتِلِ

وهكذا كان ابن عمّار متكسّبًا في شعره، واضعًا إيّاه في خدمة أهدافه ومراميه البعيدة؛ لذلك ظلّ شعره مرهونًا طوال حياته بموقعه من الهامش أو المركز، فكان أغزره وأجوده حين كان في الهامش لحاجته إلى انتشال نفسه من حياة فرضت عليه ولم يخترها، أو لإنقاذ نفسه من حماقة ارتكبها، وتراجع شعره كمًّا وجودة حين كان في المركز؛ إذ أغناه وضعه السّياسيّ والاجتماعيّ عن التّكسّب بشعره. وسكت في بعض مراحل حياته عن نظم الشّعر إلاّ للتّسلية، كما أشهره سلاحًا في وجوه أعدائه ومنافسيه، وما درى أنّه بذلك لم يترك له صاحبًا يلجأ إليه ليتشفّع له عند الحاجة، فطبعه الغادر وقلّة مروءته ولسانه المقذع وغروره وصلافته ونرجسيّته الواضحة في شعره– وقدره المحتوم قبل أيّ شيء- أوصله إلى هذه النّهاية المحزنة.

وعلى الرّغم من وجود ترجمة ابن عمّار في متون بعض المصادر التّاريخيّة، إلاّ أنّها كانت مرهونة- من مبتداها إلى منتهاها- بسيرة الملوك والأمراء الّذين أنقذوه وأغرقهم، وهي سيرة لم يتعاطف معها مؤرّخ أو ناقد، بل كانت أحكام بعضهم شديدة القسوة عليه، وقد اختصر ابن الأبّار موقف النّقّاد من شعره بالقول إنّ: "مساوئ أفعاله ذهبت بمحاسن أقواله"[82]، وكان قدره أن يعيش هامشيًا ويموت هامشيًّا، وحتّى في مواقعه المركزيّة لم يغادر الهامش ولم يغادره الهامش لحظة؛ لا في حياته الواقعيّة، ولا في سيرته التّاريخيّة، ولا حتّى في شعره.

الحواشي والتّعليقات

[1] للمزيد، انظر: سلامة، زاهي، وأبو العدوس، يوسف: "المركز والهامش في شعر الصّعاليك في العصر الجاهليّ في ضوء سيمياء الثّقافة"، **مجلّة اتّحاد الجامعات العربيّة للآداب**، الأردنّ: جامعة اليرموك، مجلد16، العدد2، 2019، ص529-557.

[2] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين بن مكرم (ت711هـ/ 1311م): **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، مج6، ص 365.

[3] للمزيد، انظر: محمود، محمّد: **إشكاليّات الهامش وتجلّيات المتن**، القاهرة: الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، 2017.

[4] تسمّى أيضًا (شنْتَبوس) و(شَنْبوس). للمزيد عنها، انظر: ياقوت الحمويّ، شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت (ت626هـ/ 1229م): **معجم البلدان**، ج3، بيروت: دار صادر، د.ت.، ص357، والبستانيّ، بطرس: **دائرة المعارف الإسلاميّة**، ج4، ط4، بيروت، 1976، ص443.

[5] ابن سعيد الأندلسيّ، أبو الحسن، نور الدين، علي بن موسى المغربيّ (685هـ/ 1286م): **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، ج1، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1964، ص389.

[6] المراكشيّ، أبو محمّد عبد الواحد بن عليّ: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، شرح: صلاح الدّين الهوّاريّ، ط1، صيدا- بيروت: المكتبة العصريّة، 1426هـ/ 2006م، ص88.

[7] المعجب، ص88

[8] عالم باللغة والأدب والشّعر (ت 476هـ). انظر ترجمته في: ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت578هـ/ 1083م): **الصّلة**، تحقيق: إبراهيم الأبياريّ، مج3، ط1، القاهرة- بيروت: دار الكتاب المصريّ- دار الكتاب اللبنانيّ، 1410هـ/ 1989م، ص976-977.

[9] لسان الدّين ابن الخطيب، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله (ت 776هـ/ 1374م): **كتاب السّحر والشّعر**، تحقيق: ج.م. كونتننته فيرير، ط1، سوريا: بدايات للنّشر والتّوزيع، 2006، ص156-157.

[10] المقّريّ، أبو العبّاس أحمد التّلمسانيّ (ت1041هـ/ 1632م): **نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب**، تحقيق: إحسان عبّاس، مج1، ط2، بيروت: دار صادر، 1997، ص297.

[11] ابن بسّام، أبو الحسن عليّ الشّنتريني (ت542هـ/ 1147م): **الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق: إحسان عبّاس، مج1، بيروت: دار الثّقافة، 1417هـ/ 1997م، ص382، ابن عمّار، ص212

[12] انظر: المعجب، ص88.

[13] انظر: ابن الأبّار، أبو عبد الله محمّد القضاعيّ (ت658هـ/ 1260م): **كتاب الحلّة السّيراء**، تحقيق: حسين مؤنس، ج2، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1985، ص119-120

[14] ذكر خالص وقارة ولغديريّ أنّ أوّل من قام بتدوين بعض شعر ابن عمّار الأديب أبو القاسم الشّلبيّ أحد معاصريه وابن بلدته، في كتابه "أخبار المعتمد بن عبّاد"، لكنّه لم يصل إلينا، وإنّما وصلت نتف منه في مصادر أخرى. انظر: خالص، صلاح: **محمّد بن عمّار الأندلسيّ**، بغداد: مطبعة الهدى، 1957، ص175 (سيشار إلى الكتاب لاحقًا ابن عمّار فقط) وقارة، حياة: "نونيّة أبي بكر بن عمّار الأندلسيّ"، **مجلّة دراسات أندلسيّة**، تونس: النّاشر جمعة شيخة، العدد22، 1999، ص97. ولغديريّ، مصطفى: "شعر محمّد بن عمّار"، **مجلّة دراسات أندلسيّة**، العدد27، 2002، ص89.

[15] مج1، ص 369-371.

[16] ص88

[17] صاحب المقامات اللزوميّة، تصدّى لإقراء اللغة والأدب في قرطبة، وتوفّي فيها عام (638هـ). انظر ترجمته في الصّلة، مج3، ص853.

[18] الحلّة، ص133-134.

[19] الذّخيرة، مج1، ص371.

[20] الحلّة، ص131

[21] المعجب، ص88

[22] الذّخيرة، مج1، ص382، المغرب، ج1، ص391،المعجب ص88، ابن دحية الكلبيّ، أبو الخطّاب عمر (ت633هـ/ 1235م): **المطرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق: إبراهيم الأبياريّ وآخرون، بيروت: دار العلم للجميع، د.ت.، ص169، ابن سعيد الأندلسيّ، أبو الحسن عليّ (ت 685هـ/ 1286م): **رايات المبرّزين وغايات المميّزين**، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، ط1، دمشق: دار طلاس للدّراسات والنّشر والتّرجمة، 1987، ص87، ابن عمّار، ص189

[23] الذّخيرة، مج1، ص382، المغرب، ج1، ص391، المعجب، ص89، المطرب، ص170، ابن عمّار، ص191.

[24] المعجب، ص89

[25] رايات المبرّزين، ص87.

[26] المطرب، ص172.

[27] للمزيد، انظر: العلي، فريال: "الأنساق الثّقافيّة في القصيدة الإنشاديّة الأندلسيّة/ عيديّات ابن فركون الغرناطيّ أنموذجًا"، **المجلّة العربيّة للعلوم الإنسانيّة**، جامعة الكويت: العدد 142، 2018، ص196-198.

[28] المطرب، ص171، المعجب، ص89، ابن عمّر، ص192.

[29] الذّخيرة، مج1، ص383، المطرب، ص172-173، ابن خاقان، أبو نصر الإشبيليّ (ت529هـ/ 1134م): **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، تحقيق: حسين خريوش، ط1، الأردنّ، الزّرقاء: مكتبة المنار، 1409هـ/1989م، ص283-284، ابن عمّار، ص193-194.

[30] انظر القصّة في: المطرب، ص39-40

[31] للمزيد، انظر: شيخة، جمعة: "المساجلات الشّعريّة بالأندلس، مساجلات المعتمد وابن عمّار مصدرًا للتّاريخ، **مجلّة دراسات أندلسيّة**، العدد 24، 2000، ص14-39.

[32] ورد الخبر في: الذّخيرة، مج1، ص46-47، والحلّة، ص131-132، والمطرب، ص16-17، والعماد الأصفهانيّ، أبو عبد الله محمّد (ت 597هـ/ 1201م): **خريدة القصر وجريدة العصر**، تحقيق: آذرتاش آذرنوش، ط1، تونس: الدّار التّونسيّة للنّشر، 1986 ، ج2، ص 28-29، وابن عمّار، ص234.

[33] الذّخيرة، مج1، ص376، ابن عمّار، ص217.

[34] يرى جمعة شيخة أنّ هذه القصيدة قيلت في المعتضد لا المعتمد كما ورد في كتاب "كنز الكتّاب ومنتخب الآداب" للبونسيّ، وتوافقه الباحثة في ذلك؛ إذ وردت عدّة أدلة على ذلك في أبيات القصيدة. انظر القصيدة كاملة في: البونسيّ، أبو إسحاق إبراهيم (ت 651هـ/ 1253م): **كنز الكتّاب ومنتخب الآداب**، تحقيق: حياة قارة، أبوظبي: المجمع الثّقافيّ، 2004، ج1، ص 374-377. وقد ورد رأي شيخة في"نونيّة أبي بكر"، ص100.

[35] كنز الكتّاب، ج1، ص376

[36] الحلّة، ج2، ص139.

[37] الحرجف: الرّيح الباردة الشّديدة الهبوب. **(لسان العرب)**

[38] ابن زيدون، أحمد بن عبد الله (ت463هـ/ 1071م): **ديوان ابن زيدون ورسائله**، تحقيق: عليّ عبد العظيم، ط3، الكويت: مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشّعريّ، 2004، ص280.

[39]الخريدة، ج2، ص71.

[40] المطرب، ص169.

[41] انظر قصيدته الدّاليّة في مدح المعتضد بعد انتصاره على باديس بن حبّوس في: القلائد، ص266.

[42] القلائد، ص266، ابن عمّار، ص199.

[43] كنز الكتّاب، ج1، ص377.

[44] كنز الكتّاب، ج1، ص377.

[45] للمزيد، انظر: الغذّاميّ، عبد الله: **النّقد الثّقافيّ (قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة)**، ط1، الدّار البيضاء- بيروت: المركز الثّقافيّ العربيّ، 2000، ص93-140.

[46] الذّخيرة، مج1، ص371.

[47] المغرب، ج1، ص389

[48] المعجب، ص86، 90.

[49] الذّخيرة، مج1، ص372، الخريدة، ج2، ص73-75، المعجب، ص86-87، ابن عمّار، ص 209-219.

[50] الذّخيرة، مج1، ص373، ابن عمّار، ص211

[51] انظر: المعجب، ص86.

[52] الذّخيرة، مج1، ص377.

[53] الذّخيرة، مج1، ص376، ابن عمّار، ص 218.

[54] الذّخيرة، مج1، ص426، ابن عمّار، ص223.

[55] انظر: ابن عمّار، ص 104- 105.

[56] الذّخيرة، مج1، ص376، ابن عمّار، ص225.

[57] القلائد، ص 266-267، ابن عمّار، ص227.

[58] انظر: ابن لُيُون التّجيبيّ، أبو عثمان سعيد (ت 750هـ/ 1350م): **لمح السِّحْر من رُوح الشّعر ورَوْح الشِّحْر**، تحقيق: سعيد بن الأحرش، أبو ظبي: المجمع الثّقافيّ، 2005، ص284-285، السّحر والشّعر، ص22، ابن عمّار، ص230.

[59] الذّخيرة، مج1، ص 383- 384.

[60] الذّخيرة، مج1، ص408، ابن عمّار، ص279-280.

[61] القلائد، ص257، ابن عمّار، ص105.

[62] ابن عمّار، ص 105- 106.

[63] انظر: ابن عمّار، ص 106-107.

[64] الذّخيرة، مج1، ص405-406

[65] الذّخيرة، مج1، ص206، الحلّة، ص144، ابن عمّار، ص285.

[66] الذّخيرة، مج1، ص394-395، القلائد، ص275.
[67] الذّخيرة، مج1، ص395-396، القلائد، ص278، ابن عمّار، ص272.
[68] انظر ترجمته في: القلائد، ص 289-296، الحلّة، ج3، ص167.
[69] رايات المبرّزين، ص89، الحلّة، ص164، ابن عمّار، ص245.
[70] الحماسة المغربيّة، ص771، ابن عمّار، ص288.
[71] الذّخيرة، مج1، ص413، الحلّة، ص156- 157.
[72] الذّخيرة، مج1، ص413
[73] الذّخيرة، مج1، ص414، الحلّة، ص157، المغرب، ج1، ص30، ابن عمّار، ص291.
[74] ابن عمّار، ص292، نقلًا عن مخطوط الأسكوريال، ص9.
[75] للمزيد عن تفاصيل مغامرة ابن عمّار في سرقسطة، انظر: ابن زيري، عبد الله بن بلقين (ت 487هـ/ 1090م): **مذكّرات الأمير عبد الله**، تحقيق: أ. ليفي بروفنسال، القاهرة: دار المعارف، 1955، ص 80.
[76] ابن عمّار، ص 144.
[77] القلائد، ص274، ابن عمّار، ص302
[78] الذّخيرة، مج1، ص419، القلائد، ص273، المعجب، ص93، ابن عمّار، ص305.
[79] الذّخيرة، مج1، ص420، الحلّة، ص، ابن عمّار، ص 306
[80] الذّخيرة، مج1، ص، الحلّة، ص153، القلائد، ص286، المعجب، ص94-95، النّفح، ج5، ص182 ،ابن عمّار، ص 306
[81] الذّخيرة، مج1، ص431، الحلّة، ص160، المغرب، ج1، ص391.
[82] الحلّة، ص134.